ماذا أفدت من هذا العمر

سن الستين أشبه الأشياء بالقمة نقف عليها في سياحتنا على هذا الكوكب ونسائل : ماذا أفدنا من الماضى ، وماذا ننتظر من المستقبل ؟ وفى أعماق العقل الكامن وسوسة كأنها لغط فى النفس : سن الستين هى سن الإقالة : يجب أن تقال أنت من الحياة .

وفى هذا العام ١٩٤٧ الذى أتم فيه هذه السن أجدنى قد أخرجت كتاباً « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » وكأنه احتجاج على الشيخوخة . ولو أن مى كانت حية لقالت لى على عادتها : ها أنت ذا تتشاءم وتحاول أن تتفاءل ، تحس الضعف فتتخذ القوة .

ولكنى كنت أجيب بأنى ما زلت أحس حماسة الروح بل غلواءه ، وأنى أستطلع الدنيا كما لو كنت طفلا . وحسبى هذا برهاناً على أنى بعيد عن الشيخوخة .

وأعود إلى أيام الطفولة والصبا بل الشباب أيضا ، فأجد أنى من حيث التعلم المدرسى أو الجامعى قد عشت فى صحراء لم أنتفع بشئ منها . وإنما كان انتفاعى بما كسبت من تربيتى الذاتية : من جامعة الكتب فى اللغتين الانجليزية والفرنسية ، ومن سياحاتى فى أوربا ، وأخيراً ، ولهذا أكبر قسط فى تربيتى ، من اختباراتى الشخصية . وقد تكون الفترة التى عشتها وأنا على وجدان يقظ بالحوادث فذة من حيث إنها فترة الانتقال من مجتمع الأمس إلى مجتمع الغد ، ومن تحول الإنتاج من النظام القروى الزراعى إلى النظام المدنى الصناعى ، ومن الغيبيات إلى الماديات . والحق أنى لا أكاد أعرف عصراً تجمعت فيه عوامل اقتصادية واجتماعية انقلابية مثل عصرنا هذا . فان الفترة التى تقع بين ١٩٠٠ و ١٩٥٠ هى تاريخ بشرى يزيد فى مغزاه ونتائجه للمستقبل على القرون التى تقع بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ . أجل ! لقد عشنا بسرعة

فى هذه الفترة بل هرولنا نحو المستقبل . وهناك من تخلفوا لأنهم لم يطيقوا هذه السرعة أو الهرولة ، فلهثوا وعرقوا ثم قعدوا . وبعد أن قعدوا واطمأنوا أخذوا يحفظون عن « ظهر قلب » قواعد الفعل الماضى فى حين بقينا نحن فى الهرولة نحو المستقبل . وليس شك فى أننا نعثر ؛ ولكن العثار مع السعى خير من السلامة مع القعود والركود .

والتربية الحقيقية ، وهى ثمرة العمر لكل انسان ، هى فى النهاية اختباراته طوال حياته . وليست هذه الاختبارات هى ما يقع لنا بل هى الرجوع والاستجابات لما وقع لنا . ونحن نختلف كثيراً فى هذا ؛ فان هناك من يستجيبون بالصدود والاعتزال . وهناك من يستجيبون بالإقدام والمكابدة ، وهؤلاء هم الذين ينتفعون بالاختبارات . أما المعتزل الذى يؤثر السلامة بالصدود والاعتزال والإحجام والانكفاف فهو ميت حتى لو طال عمره إلى المائة ؛ لأن الحياة لا تقاس بالطول وحده إذ أن لها عرضاً وعمقاً أيضاً . ولا يكون لها العرض والعمق إلا بأن ننغمس فيها ولا نقف على ساحلها متفرجين بل نقتحم عبابها ولو تعرضنا بذلك للموت المبكر .

وفى كل حياة من المصادفات ما يعد حسناً أو سيئاً ، وبعضها يقود إلى النمو والخصب ، وبعضها يؤدى إلى البوار والدمار . ومصر نفسها مصادفة سيئة لكل مصرى من حيث إنها مأساة جغرافية . إذ هى تقع فى ملتقى القارات الثلاث الكبرى ، كما أنها تقع فى طريق الملاحة بين آسيا وأوربا . ثم هى فوق ذلك تخلو من الجبال التى تيسر الدفاع ؛ ولذلك وقعت فى أسر الغزو المتكرر . وكان آخر غزاتها هؤلاء الإنجليز الذين أحالوها إلى عزبة للقطن ومنعوا عنها الصناعة والتعليم ، وأيدوا الرجعية وضربوا أبناءها المخلصين الثائرين على الاستبداد ، وعمموا فيها الفاقة والجهل والمرض .

ونحن المصريين جميعاً سواء فى هذه الكارثة ، كارثة هذه المصادفة التاريخية بغزو الانجليز لوطننا وبقائهم فيه أكثر من ستين سنة ، يفرضون علينا القيود ويقيمون السدود ويحالفون الرجعيين لقمع الروح المصرى . وكثير مما عانيته فى حياتى من المصادفات السيئة التى عطلت نشاطى وبعثرت قواى يرجع إلى هذه المحالفة القائمة بين الرجعيين المصريين والمستعمرين الانجليز فيما اتفقوا عليه من

قيود الحرية كانت تضطرنى إلى أن أدرج بدلا من أن أطير ، بل كانت تضطرنى أحياناً كثيرة إلى أن أقعد بدلا من أن أدرج . وهناك من الكتّاب فى مصر من استسلموا لهذه القيود وارتضوها ، بل صاروا يخيفون الجمهور من الحرية وينعون ما فيها من استباحات تؤدى إلى أخطار . ولكنى لم أدخل قط فى معسكرهم إذ لا أطيق العمل فى هذا الجو الخانق للضمير والذهن .

أما مصادفاتى الحسنة التى أخصبت حياتى فكثيرة ، أذكرها بالشكر للأقدار التى هيأتها لى . وأولها وأكبرها قيمة أنى لم أعرف قط الحاجة المالية ، وكذلك لم أعرف الترف المخدر . فأنا أتمتع بذلك القلق الذى يبعث على الاهتمام اليقظ المنبه ، ولكنه لايؤدى إلى الهم المرهق المجمد . ثم صادفتنى مصادفة حسنة أخرى هى أنى عرفت اللغتين الفرنسية والانجليزية فى سن مبكرة . وقد وصلتا بينى وبين الثقافة العالمية العصرية . ولذلك ارتفعت اهتماماتى من المشكلات « القروية » الصغيرة التى تحفل بها صحفنا من جرائد ومجلات إلى مشكلات عالمية بشرية منبسطة الآفاق .

ثم هناك مصادفة أخرى مؤلمة للعالم منبهة لرجال الذهن . فإنى عشت عمرى فيما بين ١٨٨٧ و ١٩٤٧ فى عصر انقلابى انفجارى رائع من حيث الاكتشافات والاختراعات والثورات ؛ لأنه عصر المعارك التاريخية والصراع الخطير بين مجتمع آفل وبين مجتمع بازغ . كأن حوادث ألف سنة قد تجمعت فى بؤرة زمنية ، كما يتجمع ضوء الشمس من العدسة ، فصرنا نرى الانقلاب تلو الانقلاب . والعالم يعانى الآلام من هذه الانقلابات التى تنبه المثقفين إلى الدرس وتحرك ذكاءهم وتبسط لهم رؤيا زاهية للمستقبل لا يراها غيرهم فى السعادة القادمة من خلال المخاض الحاضر وآلامه .

وعندما أعرض لحياتى الماضية أجدنى ممتازاً امتيازاً واضحاً جدا بصفة طفلية هى الاستطلاع . وهذا الاستطلاع يحطم القيود التى وضعها العرف أو كثيراً منها ، فيتسع ميدان الاختبارات ويزيد بذلك الوجدان . وهذا الاتجاه نفسه ، أى الانتفاع بالاختبارات ، يغير القيم والأوزان بحيث إن ما يعده غيرى نكبة قد أعده أنا نعمة لأن له قيمة لا يراها هو فى التربية والتنوير والنمو . فقد وقعت لى كوارث وأحزان أمضت حياتى فترة . ثم اكتسبت من الكوارث نوراً وحكمة ، فاكتسبت من الأحزان حناناً ورقة ، لاأحب أن أفقدها . أجل ! لقد تضورت

من الألم حين مات ابن أختي وهو فى السنة الأخيرة بكلية الطب ، وبقيت فى نفسى لوعة تمزقنى كلما ذكرته . ولكن هذه اللوعة قد استحالت بالزمن إلى حنان رحيم لا أحب أن أفقده . وكذا الشأن فى جميع الأحزان الماضية تطفىء كيمياء الزمن نارها وتحيلها إلى ذكريات رفيقة تؤنس ماضينا . ولذلك أكنز هذه الذكريات وأستثيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة للذة لا للألم ، مع أن وطأتها حين وقوعها كانت بمثابة الصدمة التى تذهل وتجمد .

وأظننى أمتاز أيضاً بعقل حر مفتوح يحسن الضيافة للآراء الجديدة . وليس لى فضل فى هذا ، وإنما الفضل للغتين الانجليزية والفرنسية اللتين أتاحتا لى الاتصال الدائم بالثقافة الأوربية العصرية . وهى تمتاز بالحرية المستفيضة كما يمتاز المجتمع الأوربى بحرية لا يعرفها المجتمع المصرى . ومن هنا أصبحت ثقافتى ارتيادية أتحسس الجديد فى الآراء وأعرضه على مجتمعنا كى أوقظه إلى الحياة العصرية . ومن هنا كان مايبدو من أنى يسارى متطرف ، مع أنى لو كنت فى مدينة أوربية لكنت أعد عاديا ليس بى أى تطرف . وليس شك أن بعض اتجاهى هذا يعود إلى أنى مسيحى لا أحس أنى مقيد بتقاليد الأكثرية فى مصر .

ولو سئلت ماهو « بيت القصيد » أو « إيماءة حياتى » كما تبدو من مؤلفاتى وسيرتى واتجاهى ، لقلت إنها الحرية . فانى أحب عرابى وفولتير لدفاعهما عن الحرية كل فى ميدانه . وقد ألفت كتابين عن حرية الفكر . وأحب كتاب «الجمهورية» لأفلاطون و « الانسان والسبرمان » لبرنارد شو ؛ لأنهما يتجردان من التقاليد فى بحث التأصيل البشرى . وأحب إبسن فى « بيت عروس » لأنه يبسط آفاقاً جديدة للحرية فى شخصية المرأة .

وأنا الآن فى الستين أعد نفسى صائراً ولست كائناً كما يقول أندريه جيد . ولذلك أعنى بأن أتعلم كلمة جديدة أو أشرع فى دراسة علم جديد أتغير أو أتطور به . وفى هذه الأيام مثلا أحد أنى مزحوم بدراسات كثيرة ، منها هذه السيمائية أى علم اللغة من حيث صحة التعبير وملاءمته كما أن اهتماماتى بالسيكلوجية والتطور والاجتماع تجعلنى أشكو قلة الفراغ . وفى العالم الآن ثقافة جديدة قد تجرثمت فى بداية هذا القرن وهى الآن تتبلور وتتجوهر، هى ثقافةعالمية غير وطنية أحس أنى من أبنائها ودعاتها . وقد أثبتت لنا القنبلة الذرية ضرورة الاتجاه العلمى وخطورته معاً لأن الحضارة القائمة ، حضارة السادة على هذا

الكوكب ، هى حضارة العلوم المادية ، والأخطار القائمة هى أخطار العلوم المادية . ولذلك فان الأمة التى تهمل العلوم إنما تهمل حياتها . وقد حاولت فى مصر طوال حياتى الماضية أن أعمم التوجيه العلمى بمؤلفات شعبية مختلفة . وكثيراً ما نبتت الخصومات بينى وبين بعض الكتاب على هذا الأساس ، أى إنى كنت أنتقص قيمة مؤلفاتهم لأنها لم تكن تتجه الاتجاه العلمى أو على الأقل كانت تتجاهل الأسس العلمية وتستسلم لمزاعم غيبية تافهة . ولذلك تعد مؤلفاتى من أدوات التطور الذهنى فى مصر ، وليست كذلك مؤلفات كثير من الكتاب الذين عاصرونى . ففى الوقت الذى كنت أؤلف فيه عن «العقل الباطن» أو « نظرية التطور وأصل الانسان » أو « البلاغة العصرية واللغة العربية » أو « حرية الفكر » ثم « حرية العقل » أو « غاندى والحركة الهندية» أو نحو ذلك مما يوجه ويغير ، كان غيرى يؤلفون عن الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين ! أجل . كنت أنشد الآفاق وأرتاد المجاهل فى الوقت الذى كانوا هم فيه يشرحون لقرائهم قواعد الفعل الماضى ، مع أن هذه القواعد معروفة ، ومشروحة فى مئات الكتب القديمة ولا تحتاج إلى زيادة فى الشرح والايضاح . فان جميع الذين كتبوا مثلا فى ترجمة عمر بن الخطاب لم يكتبوا عنه بأوفى مما كتب ابن أبى الحديد منذ نحو ألف سنة . وجميع الذين يخرجون لنا من وقت لآخر تراجم عن أبى نواس أو المهدى أو المأمون لم يزيدوا كلمة عما كتبه مؤلف الأغانى أو غيره من المؤلفين القدماء . ولكن الجمهور الذى يتعطش إلى الثقافة العصرية كى يفهم الحضارة العصرية لا يجد غير هذه الموضوعات القديمة ، فيبقى ، أى هذا الجمهور ، قديماً غير عصرى .

وهناك أشياء آسف لها كثيراً . منها أنى عطلت عن الكتابة إلا تحت اعين الرقابة نحو خمسة عشر عاماً فى الحربين الكبريين ؛ إذ حتم علينا الانجليز ألا ننشر حرفاً فى جريدة أو مجلة أو كتاب إلا بعد أن يقرأه رقيب . وقد قرئت لى كتب فى الأدب والعلم وحذف الرقيب منها ما شاء . . . وهذا التعطيل قد جمد فكرى مدة طويلة ؛ لأن قطع التفاعل بين المؤلف وبين الجمهور يجعل الثقافة محدودة . لأن الثقافة اجتماعيـة لا نهتم بها إلا فى مجتمع حى يوافقنا أو يعارضنا ، ولكنه فى كلتا الحالين ينبهنا . وقد قطع الاستعمار البريطانى بيننا وبين الجمهور هذه السنين الطويلة ، فقطع عنا بذلك التنبيه الذى

كان يحركنا إلى التفكير والدراسة الخصبة ، كما قطع عن الجمهور التنوير الذى كان يحتاج إليه .

وشئ آخر آسف له هو أن الحكومة المصرية ، بايعاز المستعمرين الانجليز أيضاً ، قد سنت قانوناً تستطيع أن تحرم به أى مصرى خارج القطر من رعويته المصرية ، ويكفى لذلك قرار من مجلس الوزراء بلا محاكمة أو دفاع . وقد منعنى هذا القانون من أن أترك مصر منذ عشرين سنة ، مع أن مثلى يحتاج إلى أن يزور أوربا مرة كل عام أو كل بضعة أعوام حيث يتجدد بالايحاء والتغيير الذهنى والترفيه النفسى . ولكن المتسلطين الذين يعيشون فى مصر بالامتيازات القديمة ، هذه الامتيازات التى هى فضيحة مصر الآن فى جميع المحافل المتمدنة ، يخشون رجلا مثلى يسارع إلى شرح الآراء الجديدة والإصلاحات العصرية . فما هو أن أضع قدمى فى باريس حتى أجد قراراً بحرمانى من الرعوية المصرية . وعندئذ يجب أن أتسكع سائر عمرى إلى أن أموت خارج وطنى بعيداً عن أولادى . ولهذا آثرت البقاء فى القاهرة على التسكع ، بلا وطن ، فى مدن أوربا . وظنى أن هذا القانون سيبقى إلى أن أموت . ولن أرى أوربا التى تشع أنوارها على هذا الكوكب .

وأخيراً أعود إلى السؤال الذى لا يفتأ يتكرر : هل ربيت نفسى ؟

وهذا السؤال يعيد الى ذهنى وصف هـ . ج . ولز للوزير البريطانى الكبير جلادستون بأنه لا يعد متعلما أو حاصلا على تربية . وذلك لأنه « كان يجهل الأثنولوجية أى علم وصف السلالات البشرية وخصائصها . وأن رؤيته للتاريخ كانت ناقصة لأنه لم يكن يدرى الصورة الحقيقية للجيولوجية أى علم طبقات القشرة الأرضية وتاريخ الأحياء ، كما كان يجهل الأفكار الابتدائية عن البيولوجية أى علم الحياة . وكذلك كان يجهل العلوم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العصرية والآداب والفكر الحديث » .

وإذا قست نفسى بهذا القياس الذى عينه ولز كى يبرهن على جهل جلادستون فانى أجد أنى حاصل على التربية التى قصدها ؛ لأنى أدرى كل هذه الأشياء التى ذكرها وأكثر منها مما يجرى على طرازها . والحقيقة أن الذين يستطيعون أن يسموا أنفسهم ممتازين بتربية صحيحة فى أيامنا قد لا يبلغون واحداً فى الألف . والبرهان على هذا أن الذين يفهمون مثلا النظرية النسبية

لأينشتين أو الطاقة الذرية قليلون جدا. وهذه القلة ترجع إلى أن وسائل التربية معدومة أو نادرة فى بقاع كثيرة. وذلك الذى يصل على الرغم من كل ذلك إلى تربية تكاملية حاوية بحيث تتسع عنده المعارف وتتكامل وتتناسق، هذا الرجل يحتاج إلى أن يفنى العمر كى يحقق هذه الغاية. وطلب العيش يحول دون ذلك عند ٩٩٩ فى الألف من الناس.

والواقع أن الذين يقودون العالم منذ أيام جلادستون إلى الآن كانوا ولا يزالون فى عداد الجهلة. فقد روى ولز مثلا عن جلادستون أيضاً أن السر جون لبوك رافقه فى زيارة لداروين، فكان طوال وقته يتحدث عن المشكلة البلغارية كأنها كل شئ فى وجدانه، أى إنه لم يكن يدرى القيمة البشرية الكبرى لنظرية التطور التى أخرج داروين إنجيلها للعالم. ولكن أليس هذا حال الساسة إلى الآن؟ هل وزراء بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة أو مصر فى ١٩٤٧ أفضل من حال جلادستون فى ١٨٧٠؟

إن العالم منكوب بتقاليد فى التربية والتعليم. وفى المدارس والجامعات رواسب ثقافية تبلد الذهن بل تحول دون التفكير، كأن هناك محظورات لايجوز التفكير فيها. اعتبر مثلا هذا الفقر المصنوع فى العالم، فان الانتاج الزراعى ثم الانتاج الصناعى يكفيان، مع التنظيم، كى يعيش كل فرد على هذا الكوكب وهو موفر الطعام والكساء والمسكن، آمن على نفسه وجسمه من المرض والجريمة، متعلم أقصى تعليم، مستمتع بالفراغ الذى يمكنه من زيادة معارفه. ولكن الساسة الذين يتولون شؤون هذا العالم لا يزالون فى مستوى جلادستون يهتمون بمشكلة بلغاريا أكثر مما يهتمون بنظرية التطور. والعجب أنك عندما تبحث مشكلة بلغاريا تجد أنها نبتت من الجهل أيضاً، وأن الذين يحاولون حلها جهلاء يثرثرون وهم يعتقدون أنهم يفكرون.

وقد سبق أن قلت إنى لا آسف كثيراً على أنى لم أتخصص لأن الإخصائيين، كما أرى فى أخلاقهم، لا يتوسعون أو يتعمقون فى الدراسات التى لا تمس العلم أو الفن الذى أخصوا فيه. وأعتقد أحياناً أن الزهو هو الذى يمنعهم من هذا التوسع أو التعمق، وأنهم يحسون استكفاء ذاتيا لا يحتاجون معه إلى زيادة وأقول فى نفسى عندئذ إنى لست كذلك وإنى لو كنت قد أخصيت فى علم تجريبى لما زهيت. ولكن هذا الفرض ليس سيكلوجياً لأنه يتجاهل العواطف الاجتماعية.

ولكنى لا أشك أنى بعيد عن الزهو فى غير تعمد أو تكلف ، وأن بعدى عن الزهو هو الذى يجعلنى أتابع الثقافة بروح الطالب ، وهو الذى يجعل أسلوبى خالياً من التفصح . وكثير من الكتاب يتفصح فى خيلاء وزهو لأنه يسلك فى حياته وأخلاقه سلوك الخيلاء والزهو . ولهذا السلوك أثره فى نفسه لأنه يحمله على الاستكفاء فلا يدرس ولا يتزيد من المعارف . ولذلك أستطيع أن أجزم بأن التفصح فى الكاتب برهان على كراهة التزيد أو التطور فى الدراسة . وليس هذا لأن التفصح يشغل وقته بل لأنه يكسبه زهواً فيقنع بالخيلاء والتبختر . وفى ذهنى الآن كاتب من هؤلاء المتبخترين يكتب من وقت لآخر عن الأخلاق. قعدت إليه ذات مرة أحدثه عن الأخلاق وأنها هى والاجتماع ثمرة الوضع الاقتصادى . فلم ألق منه غير الضحك . فانتقلت من البيئة إلى الوراثة وذكرت له كتاب كرافت أبنج عن « السيكوباثية الجنسية » فلم أستنبط منه غير الدهشة . أجل ! إن تفصحه المتحذلق قد حال بينه وبين تربية نفسه ؛ إذ هو قانع بهذه الخيلاء اللفظية وسيموت بها جاهلا لشؤون هذا الكوكب الذى عاش عليه .

ولذلك أعتقد أن أعظم الأهداف للتربية هو الاتجاه . أى كيف نتجه فى هذه الدنيا و بماذا نهتم ؟ نهتم باقتناء الفصاحة أم باقتناء المعارف ؟ بمشكلة بلغاريا أم بنظرية التطور ؟ نهتم بأن نكون وجهاء نسير فى خيلاء وزهو أم عقلاء نفكر فى سداد وفهم ؟

فى عصرنا هذا يجب أن نقيس التربية الحقة بأدق وأكبر من المقياس الذى وضعه ه. ج. ولز. وعندئذ لا نجد أحداً ، ولا واحداً ، يمكن أن يقال إنه حاصل على تربية حقة . فان العلوم خاصة والثقافة عامة مشتتة غير منظمة ، وتحصيلها لهذا السبب شاق . وأعمارنا تفنى فى محاولات عقيمة وإن تكن مخلصة للتعلم . حتى إذا انتهينا إلى الطريقة واهتدينا إلى المنهاج وجدنا أن الشباب قد ولى .

وقد يبعثنا هذا إلى القول بأن العمر يجب أن يزيد حتى يبلغ المائة مثلا ، فنجنى فى العقود الأخيرة ماجهدنا لأجله واختبرناه فى العقود الأولى . ولكن قبل ذلك يجب تنظيم المعارف ومناهج الدراسة وترقية الصحافة حتى تعود جميعها أدوات ووسائل للتنوير . لأن الواقع أن بعضها الآن أدوات ووسائل لتبليد الأذهان ومطاردة الذكاء ، ونشر الظلام . والعالم حافل بالتباسات

واستغراضات للجهل الفاشى ، هذا الجهل الذى يجد دعامة بين المعلمين والأدباء والفلاسفة الذين يدعون إلى مزاعم وعقائد يوحون منها إلى القراء والمتعلمين بأنها آراء وحقائق . وقد سبق أن عانى جيته مثل هذه الحال حين قال : « ليس هناك أفظع من الجهل النشيط » .

وإذن أجيب على سؤالى : هل ربيت نفسى؟ بأنى مازلت « حائراً » فى سياق التربية . وأنى أسر حين أحس أن لى شخصية نيوروزية قلقة مستطلعة أطمع فى أكثر مما أستوعب ، وأن الثقافة تحتل المكان الأول من اهتماماتى . بل أحس أحياناً أنها الاهتمام الوحيد ، حتى إنى لألجأ نفسى من وقت لآخر بخطاب يرسله إلىّ صديق فأرجئ فتحه إلى الغد كى أتصفح كتاباً جديداً هذا اليوم .

وأسر أيضاً حين أجد أن القيم البشرية عندى تأخذ مكان القيم الاجتماعية . وعندى أن هذا الانتقال هو البرهان فى عصرنا على الحكمة والفهم . فان القيم الاجتماعية ، بالحاح العادات والتقاليد ، تغمرنا وتقيم فى نفوسنا « عواطف » تحملنا على السعى والجهد لما يسمونه « منافسة » وأحرى أن يسمى « محاسدة » لاقتناء أتوسبيل أو عزبة أو لقب أو نحو ذلك مما يحملنا المجتمع على احترامه . وكثير من الناس يموتون شهداء هذا الجهد السخيف . وحين ننتقل إلى القيم البشرية نجد أن حياة الصحة والصلاح الاجتماعى والفهم والقناعة بالحاجات الضرورية والاستمتاع بما فى الدنيا من أطايبها المجانية خير ألف مرة بل مليون مرة من تلك القيم الاجتماعية . وليس فى الدنيا ما يعدل فنجاناً من الشاى أو كسرة من الخبز مع الجبن تحت ظل شجرة (كما قال الإمبراطور أوريليوس) أو قراءة كتاب منير أو الحديث إلى المجرة فى منتصف الليل فى الريف أو تحية الشمس فى بزوغها ، أو ، حين أكتب ، البحث عن بشائر المستقبل والتشبث بها وشرحها فى مقال أو كتاب .

وإذا سأل القارئ : ماذا تستنتج من اختباراتك ، وما تكهناتك للمستقبل بعد أن قضيت نحو أربعين سنة وأنت على اتصال وجدانى بالعقل العام على هذا الكوكب ؟

فأنى أجيب : بأن الحاضر يومئ إلى المستقبل إيماءة واضحة نراها بالعين وأحياناً نسمعها صاخبة بالأذن ، هى الاشتراكية التى سوف تعم الدنيا كلها . وليس هذا لأن الناس سيتحولون من أشرار إلى أبرار ، بل لأن الانتاج

الصناعى سيحتم ذلك . كما سيحتم توافر النقل وضرورة التجارة ، على أبعاد كوكبية، أن يحال العالم إلى دولة واحدة تتجه نحو ثقافة واحدة ولغة واحدة .

وهذا النظام الاشتراكى العام سوف يرفع المرأة من الأنثوية إلى الانسانية ؛ لأنه من جهة سيفتح لها أبواب العمل والاختبار والتعلم كالرجل سواء ، كما أنه من جهة أخرى سيغنيها عن عناء الواجبات المنزلية العديدة . وليس هذا لأنها ستترك المنزل بل لأن كثيراً من الواجبات المنزلية ينتقل بالحضارة إلى خارج المنزل . ويتضح هذا من المقارنة فى مصر بين المرأة فى الريف والمرأة فى المدينة فان الأولى تعجن وتخبز وتحلب البقرة وتصنع الجبن وتخيط ملابسها وتحمل جرة الماء من الجدول وتجمع الوقود إلى غير ذلك من الواجبات التى لا تعرفها المرأة فى المدينة . ثم المقارنة بين المرأة فى القاهرة والمرأة فى نيويورك تزيدنا فهماً بأن الحضارة تلغى الواجبات المنزلية التى ترهق ربات البيوت الآن وتحول بينهن وبين العمل فى الخارج أو بين تربية انفسهن . ولذلك نحن صائرون نحو تحقيق الرؤيا التى حلم بها إبسن فى شخصية « نورا » هذه الأنثى التى أصرت على أن ترتفع من الأنثوية إلى الانسانية .

وأستطيع أن أستنتج من حياتى الماضية أن أعظم العقبات التى تؤخرنا فى مصر كما تؤخر كثيراً من أمم آسيا وأوربا ، بعد الاستعمار ، هى هذه الرواسب من الثقافات والتقاليد والغيبيات الفرعونية والبابلية وأمثالها التى انحدرت إلينا . وهى تتخذ ألواناً من الصيغ والأساليب ، وتعترض عجلة التاريخ وتعوق التطور . والبيئة الصناعية وحدها هى التى تحطمها ؛ لأنها ، أى هذه البيئة ، لا تنهض إلا على العلم . وهو نار كاوية تحرق جميع هذه الرواسب وتبددها هباء .

والحضارة الجديدة المنتظرة هى الحضارة الصناعية ، هى الحضارة التى لا يبعد أن تلغى الزراعة من العالم . وليس هذا بالعمل العظيم المستحيل كما يتوهم بعضنا ؛ فان الكيمياء الصناعية تصنع الآن مركبات كيماوية عديدة كان صنعها قبل هذا القرن مقصوراً على الجسم الحى نباتاً كان أو حيواناً . فاذا استطاعت الكيمياء الصناعية أن تصنع مادة البروتين فان الزراعة تعود عناء لا ضرورة له بتاتاً . وعندئذ يحال العالم إلى حدائق وغابات تعنى بها الطبيعة وحدها . وإذا كنا نظن أن صنع البروتينات لايزال بعيداً فيجب أن نذكر الطاقة الذرية . لأن أى إنسان سنا لو أنه ، قبل خمس سنوات ، سئل أيهما أقرب

إلى خيالنا : استخدام الطاقة الذرية قنابل للتدمير أو صنع البروتين كيمائيا ، لظنى هذا الثانى أيسر بكثير من الأول .

وظنى أيضاً أن الزمن ليس بعيداً حين نشرع ، حتى فى مصر ، فى تطبيق نظرية التطور بالانتخاب التناسلى ، أى اليوجنية ، وفى العالم نحو أربعين دولة متمدنة تمنع غير الصالحين للتناسل من أن يعقبوا . والأمة التى تعارض فى مثل هذا الاصلاح ستتخلف فى ميدان التطور البيولوجى أى الرقى البشرى الصميم .

وأخيراً أقول إنى أرى إيماءة ثقافية جديدة هى التخلص من المذهب الانفصالى ، مذهب ديكارت ، بين الروح والجسم ، أو بين الحياة والمادة ، أو بين العقل والمادة ، إلى المذهب الاتصالى الذى يقول بأن القوة هى المادة المتدفقة والمادة هى القوة المتجمدة . وفى هذا القول وثبة ثقافية واسعة إلى المستقبل سوف تكون كبيرة الأثر فى الحضارة القادمة . وقد سبق للفيلسوف العظيم سبينوزا أن نبه إلى ذلك فى لغة فلسفية . ونحن نقتنع هذه الأيام بصحة تفكيره عن طريق العلم التجريبى ، ونصل إلى وحدة وجودية فى الطبيعة ثم نتدرج إلى ما يلائمها فى المجتمع .

وعندما أرتفع إلى هذا التفكير أحس أن كثيراً من الاهتمامات بل الهموم الوطنية التى حجبت النور وعكرت الصفاء اللذين كنت أنشدهما فى حب وولاء بشريين ، هذه الهموم تذوب وتتبدد . أجل ! إنى أحب أن أعترف . فانى ما كتبت كلمة واحدة ضد المستعمرين الانجليز إلا وأنا فى ألم وارتعاش وآسف أكثر مما أحس من غيظ وحنق وكفاح . وكذلك كان الشأن عندما كنت أكافح ، الرجعيين المستغرضين والجهلاء النشيطين من المصريين . فانى أخجل حين أقول إنى أحب جميع هؤلاء الانجليز المستعمرين والمصريين المستبدين . وفى نفسى رجاء بأن يتغيروا وأن يروا رؤياى وأن ينسلخوا من الاستعمار والاستبداد ، ويفتحوا عقولهم للثقافة الجديدة : للحرية والإخاء والمساواة . وجميعها مستطاع لو أنهم كفوا عن « الجهل النشيط » الذى يمارسونه .

وقد احترفت الثقافة وقضيت عمرى أقرأ وأكتب . وزادتنى هذه الحرفة وجدانا بالدنيا ، كأنى أحس أكثر وأرى أبعد ، حتى لقد صغرت همومى الشخصية الى جنب اهتماماتى العامة . ودراستى للأدب وللفلسفة قد أوهجت خيالى وأحدّت

ذكائى . ثم انعكست هذه الدراسة إلى حياتى فأصبحت قيمى وأوزانى الخاصة قيماً وأوزاناً أدبية وفلسفية . ولذلك كثيراً ما أنصح للشبان بأن يقرءوا الأدب والفلسفة ، وأن يحاولوا كتابة القصة وقرض الشعر . لأنهم وهم فى هذا النشاط يتخيلون الحال المثلى ويصعدون بأذهانهم إلى السماء ويختارون أسمى المعانى وأنصع الكلمات . وكل هذا ينعكس على حياتهم الخاصة فيرتفعون عن التبذل ويحيلون الحياة إلى فن جميل .

ولو أنى مت ثم بعثت وخيرت فى الحرفة التى أحترف لما اخترت خيراً من أن أقرأ وأكتب . ولكنى مع ذلك سوف أموت وفى نفسى شئ من الطاقة الذرية . لأنه يجب على كل إنسان فى عصرنا أن يستوفى ثقافة علمية معينة يدرك منها هذا المنهج البشرى الجديد للتسلط على المستقبل . ولم أجد الفرصة لهذه الثقافة كما كنت أشتهى وإن كان حظى منها قد يحسدنى عليه غيرى . أجل ! لقد تركت الطاقة الذرية فى نفسى مركب نقص أعانيه كل يوم .

سلامه موسى